الثورة الأمريكية.. ميلاد أمة

(١٧٧٥-١٧٨٣م)

- المستعمرات
- قوانين مقيدة
- الثورة...قادمة
- ضريبة التمغة
- مذبحة بوسطن
- حفلة شاي بوسطن
- الاستقلال
- الحرب
- إنقاذ الثوار
- إنتقام فرنسي
- المعركة الفاصلة
- الاعتراف بالاستقلال

obeikandl.com

منذ أن وضع كريستوفر كولومبوس (١٤٥١-١٥٠٦) أقدامه على ما بات يعرف بالعالم الجديد في ١٢ أكتوبر ١٤٩٢م، ولم تنقطع الهجرة الأوروبية إلى هذا العالم البكر الذي أخذ يتشكل وفق المفاهيم الأوروبية، فالسكان الأصليين أقصوا من المشهد من خلال مذابح يندي لها الجبين، وبدأت طلائع الاستعمار الأسباني والبرتغالي ثم الهولندي والفرنسي والانجليزي تظهر، ونشرت نفوذها على مساحات شاسعة هنا وهناك، دون أن تكون لأمة سيطرة على هذا العالم مترامي الأطراف، إلا ان التفوق الإنجليزي بدأ يظهر في النصف الأول من القرن السابع عشر نتيجة للسياسات القمعية التي ارتكبها الملك تشارلز الأول والتي أدت إلى دخول البلاد في أتون الحرب الأهلية وهجرة عائلات كاملة من انجلترا إلى الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية فيما عرف بـ"نيو انجلاند" وكانت تضم ثلاثة عشر مستعمرة هي على الترتيب من الشمال إلى الجنوب: "نيوهامبشير"، و"ماساتشوستس"، و"نيويورك"، و"رود آيلاند"، و"كونيكتكات"، و"بنسلفينيا"، و"نيوجيرسي"، و"ديلاوير"، و"ميريلاند"، و"فيرجينيا"، و"نورث كارولاينا"، و"ساوث كارولاينا"، و"جورجيا".

وكان المستوطنون الإنجليز عندما غادروا انجلترا الوطن الأم إلى الوطن الجديد والبديل أمريكا كانوا يحملون في داخلهم الأمل في النجاح والرغبة في المال الذي يحقق حياة كريمة، الجراءة شعارهم والبحث عن الثراء حلمهم، وكانوا يمثلون في الواقع العناصر الأكثر شبابا وطموحا وقدرة على العمل، وعندما أقلعت السفن تحملهم إلى المجهول في العالم البكر كانت ذكرياتهم تتبخر عن العالم القديم الذي تركوه خلفهم، وعندما كونوا مجتمعاتهم في الساحل الشرقي لقارة أمريكا الشمالية، لم تكن رغبتهم ابقاء الصلة بالوطن الأم بل أرادوا حرية الحركة فيما تحت ايديهم من ثروات بدأت تتجمع من نهب خيرات العالم الجديد، فقد قرروا قطع الصلة بمسقط رأسهم، لذلك كان الصدام محتم والثورة ضرورة فكانت الثورة الأمريكية عنوانا للتغيرات العميقة التي جرت في الجزء الغربي من العالم وظهرت على خلفيته دولة فتية قوية ستلعب دورا في مستقبل الأيام وبشرت بفجر جديد ما نزال نحيا في ظهره حتى الآن.

المستعمرات

بدأت انجلترا تمد نفوذها إلى أمريكا منذ بداية عصر الكشوف الجغرافية عندما قام جون كابوت (١٤٥٠-١٤٩٨) بأول رحلة بحرية تحت علم إنجلترا ووصل من خلالها إلى "نيوفوند لاند" و"لابرادور" على الشاطئ الشرقي لشمال القارة الأمريكية، وهي الرحلة التي على أساسها أدعت انجلترا حقوقا أدبية وقانونية في ملكية مساحات شاسعة في القارة الجديدة.

وعندما تأجج النزاع الإنجليزي الإسباني، قررت أسبانيا غزو إنجلترا فكانت الهزيمة من نصيب الأسطول الإسباني الأرمادا في عام ١٥٨٨م سببا في فتح طرق الملاحة إلى العالم الجديد أمام التجار والمستكشفين والمغامرين الانجليز، فقد تلاشى التفوق الإسباني في أعالي البحار وحل محله نفوذ إنجليزي أخذ يكبر مع مرور الأيام، ففي سنة ١٦٠٧م أسس الانجليز أولى مستعمراتهم في جيمس تاون (في ولاية فرجينيا الحالية) واستغلوا نهر جيمس في توسيع مستعمرتهم. وكان عام ١٦١٩م فاصلا في نمو تلك المستعمرة فقد وصلت سفينة إنجليزية تحمل تسعين فتاة برسم الزواج مما سمح للسكان بالتزايد والاستقرار في الأراضي الجديدة، فيما وصلت سفينة أخرى هولندية هذه المرة تحمل العبيد ما ساعد على زيادة القدرة الإنتاجية الزراعية للمستعرة الوليدة، نمت "جيمس تاون" بسرعة حتى أصبحت مدينة كبيرة منحها الملك جيمس الأول حق انتخاب مجلس تشريعي للتعاون مع الحاكم المعين من قبل الملك. إلا أن المجلس التشريعي وسع من سلطاته وفرض قانونا يقضي بأنه "لا يحق للحاكم المعين من قبل الملك أن يفرض ضرائب جديدة على سكان الولاية إلا بعد موافقة المجلس التشريعي عليها" وهي خطوة أولى مبكرة نحو الانفصال عن البلد الأم انجلترا. وظل المجلس التشريعي المنتخب يمارس سلطاته طوال الحقبة الاستعمارية كأحد أهم المراكز التي تمارس الديمقراطية في العالم الجديد.

أخذت الخطوات تتسارع في انشاء المستعمرات الإنجليزية حتى أصبحت كيانا كبيرا ضم العديد من المستعمرات عرف باسم "نيو انجلاند" في أربعينيات القرن السابع عشر، وهم من عرفوا بـ"اليانكي"، واستطاعت انجلترا ان تقصي كل من هولندا والسويد عن منطقة نفوذها واستولت على مستعمرات الدولتين في ناطق منطقة

مستعمراتها، فخلصت لها المنطقة الشرقية الساحلية من الولايات المتحدة حاليا.

وأعطت الحروب الدينية التي شهدتها إنجلترا على خلفية الثورة الدستورية (١٦٤٠-١٦٨٩م) دفعة للمستعمرات فقد قررت العديد من الأسر الانجليزية التي تعرضت للاضطهاد الديني إلى هجرة البلاد، فكانت معظم الهجرات الإنجليزية إلى السواحل الشرقية لقارة أمريكا أما من المنتمين إلى المذهب البيورتاني أو الكاثوليكي أوالكويكرز. وهم من الطوائف التي تعرضت للإضطهاد والتضييق من قبل الكنيسة الانجيلكانية الرسمية في انجلترا. وهو ما ميز الموجة الأولى من الهجرات الإنجليزية، ثم اعقبها انصار الملكية المنهارة في عصر جمهورية كروميل، ثم جاء المغامرون والباحثون عن الذهب والفضة في موجات تالية، خصوصا ان انجلترا كانت تعاني من فائض في الايدي العاملة نتيجة لقيام الاقتصاد الانجليزي على الاقطاع في مجمله وهو نظام كان يعطي ملكية الارض للابن الأكبر ويحرم بقية الابناء، فكان هناك فائض من العاطلين أجبروا على الهجرة إلى العالم الجديد، وعندما استقر الانجليز -على الرغم من اختلاف اسباب الهجرة - في المستعمرات الجديدة إلا أنهم عملوا جميعا على تكوين مجتمعات راسخة ثابتة تعتمد على قيام انشطة صناعية وزراعية مرتبطة بالمناطق التي استعمروها، وظهرت لذلك الحاجة لاستصلاح المساحات الشاسعة من الأراضي فتم جلب العبيد السود من القارة الإفريقية للعمل في السخرة لدى السادة من البيض فبدأت معالم التفرقة العنصرية في الظهور وبقسوة.

وجاءت عملية استقرار المستوطنين الانجليز في القارة الأمريكية على حساب السكان الاصلين المعروفين خطأ باسم "الهنود الحمر"، فقد كان نزول الرجل الأبيض اراضي هؤلاء البسطاء نذيرا بفنائهم، فقد شن المستوطنون حروبا شرسة طوال القرن السابع عشر راح ضحيتها الآلاف من الهنود الحمر رجالا ونساء واطفالا، لذلك ما ان جاء القرن الثامن عشر حتى كانت القوى الاستعمارية قد قضت على الغالبية العظمى من قبائل الهنود الحمر.

نمت المستعمرات بسرعة نتيجة لوفرة الإنتاج الزراعي ونمو الحياة الصناعية، فمن الناحية الزراعية كانت تلك المستعمرات ذات قدرات ضخمة مكنتها من تحقيق

الاكتفاء الذاتي من القمح والذرة، ثم التبغ وقصب السكر والأرز، وبدأت تصدير الفائض للدول الأوروبية، وقامت صناعة الدباغ والسفن والأخشاب كصناعات أساسية في المستعمرات الأمريكية، وساعد على رواج الحياة التجارية امتلاك المستعمرات لساحل طويل متعرج مكنها من إنشاء العديد من الموانئ التي نقلت المنتجات الأمريكية للعالم.

اقتبست المستعمرات الأمريكية نظم حكمها من الدولة الأم إنجلترا، وكان نظام الحكم السياسي للمستعمرات من قبل لندن أقل في قيوده من أي نظام استعماري أوروبي طبق في العالم الجديد، فقد حكم الطابع العملي البرجماتي علاقة انجلترا بالمستعمرات الأمريكية، فنتيجة لبعد المسافة وكثرة المشاكل التي تحتاج إلى قرار سريع سببا في إعطاء لندن المستعمرات حكما ذاتيا شبه مستقل عن البلد الأم، وإن كان القانون الانجليزي هو القانون المطبق. ولم تأت المشاكل من قبل النظام السياسي أو القانوني فقد كان المستوطنون على اتم استعداد لتقبلها لما فيها من مرونة تسمح لهم بحرية الحركة بعيدا عن سيطرة دوائر الحكم في لندن، لكن الأزمة اندلعت لتصادم المصالح بين البلد الأم والمستوطنات، بين التبعية الاقتصادية التي ارادتها انجلترا والحرية التجارية التي طالبت بها المستعمرات وهو اختلاف سيولد صراع ثم انفصال.

قوانين مقيدة

كانت انجلترا تطبق النظرية الميركانتلية (التجارية)، التي شاعت في أوروبا في مطلع العصر الحديث، وهي النظرية التي ترى أن دخل الدولة لابد ان يحول إلى احتياطي من الذهب، وهو ما كان يعني استخدام مختلف السمتعمرات لرفع إنتاجيتها لتمويل مخزون أكبر من الذهب في البلد الأم، وكانت المستعمرات الأمريكية مطالبة بالكثير نتيجة كونها مصدر رئيسي لقصب السكر والأخشاب والأسماك كمواد خام يعاد تصنيعها في مدن انجلترا، كنوع من المركزية التجارية التي تضمن لإنجلترا تفوقا على مختلف المستعمرات التابعة، لذلك لم يكن غريبا ان تفرض إنجلترا قوانين تجرم الصناعات المحلية حتى تبقي المستعمرات كسوق لمنتجاتها من ناحية وتبقى عليها كمصدر للمواد الخام من ناحية أخرى.

كانت قسوة انجلترا الإقتصادية لها ما يبررها فقد كانت مستعمراتها في أمريكا هي الأولى في تاريخها الاستعماري الطويل، فكان يحكمها في إدارة هذه المستعمرات طابع التجربة أكثر من الطابع الإداري المخطط الذي ستتميز به فيما بعد، لذلك امتازت القوانين الإقتصادية التي اصدرتها انجلترا بالقسوة والتحكم الشديد في مصير المستوطنين الامريكان، فقد جاء قانون عام ١٦٦٠م يحظر نقل البضائع داخل اركان الإمبراطورية الإنجليزية إلا على السفن الإنجليزية فقط، كما حدد القانون أنواعا لا يسمح ببيعه إلا داخل الإمبراطورية وبين رعاياها مثل القطن قصير التيلة والأخشاب والتبغ والسكر، وفيما بعد أضيف إلى القائمة الأرز والفراء والحديد. وهو ما يعني ربط السمتعمرات الأمريكية برغبات المستهلك الانجليزي وانخفاض قيمة السلع الامريكية نتيجة لانعدام القدرة التنافسية طالما ان انجلترا احتكرت هذه السلع ومنعت تصديرها.

وامعانا في ربط المستعمرات الأمريكية بالاقتصاد الانجليزي صدر قانون عام ١٦٦٣م الذي فرض بموجبه على واردات المستعمرات الأمريكية من الدول الأوروبية بأن تمر على موانئ إنجليزية لدفع ضريبة مرور هناك، وهو اعتبره الامريكان بمثابة اعتراف انجليزي بعدم اهليتهم وممارسة نوع من انواع التسلط ضدهم، لذلك رفضوا هذا القانون وتحايلوا عليه، إلا أن الملك جيمس الثاني استجاب لشكاوى رجال الجمارك الذين اطلعوه على تهرب مستوطني المستعمرات الامريكية من دفع الرسوم الكقررة عليهم، فأصدر الملك قانون عام ١٦٦٩م الذي فرض على حكام المستعمرات الأمريكية حلف اليمين على تطبيق القوانين الانجليزية ومن يخالف ذلك يتعرض للعقوبة مع أعطاء رجال الجمارك حق إيقاف السفن المشبوهة وتفتيشها.

وحرم قانون عام ١٧٣٣م على المستعمرات أن تستورد السكر من أية مستعمرة أوروبية، وحصر الاستيراد على المستعمرات الانجليزية الاخرى.

وفي إطار منع أي منافسة محتملة للصناعة الإجليزية من قبل المستعمرات الامريكية، أقرت قوانين تنمع قيام الصناعات التي احتكرتها انجلترا منها قانون الأصواف لعام ١٦٩٩م الذي منع إنتاج الملابس الصوفية في المستعمرات الأمريكية،

ثم قانون القبعات عام ١٧٣٢م الذي منع إنتاج القبعات في وقت كان لا يستطيع أي مواطن في الغرب كله الخروج دون ان تكون القبعة على رأسه، ثم قانون الحديد عام ١٧٥٠م الذي منع إنتاج المصنوعات التي يكون فيها الحديدي عاملا أوليا. ورغم قسوة هذه القوانين إلا أن تنفيذها لم يكن فعالا فقد غضت السلطات الإنجليزية الطرف كثيرا عن مخالفات عديدة ولم تسع إلى تنفيذ هذه القوانين بحذافيرها، لكن شعور المستوطنين الامريكان بوجود قيد على رقابهم، جعلهم يتذمرون من هذه القوانين ويطالبون بإلغاءها.

وكان المستعمرون يعتمدون على الدولار الأسباني في تجارتهم مع الخارج، بالإضافة إلى صك المجالس التشريعية في المستعمرات لعملات محلية للتعامل لداخلي، وهو أمر أغضب الحكومة الإنجليزية التي قررت في عام ١٧٦٤م بناء على تشريع صادر من البرلمان الإنجليزي بمنع صك أي عملات محلية أو التعامل بالدولار وقصر التعامل على العملة الإنجليزية.

الثورة...قادمة

كان معدل نمو السكان في المستعمرات الإنجليزية في أمريكا الشمالية بالغ السرعة فلم يأت عام ١٧٥٠م إلا وكان عدد سكان المستعمرات الإنجليزية يقترب من مليوني نسمة، فيما كان عدد سكان بريطانيا نفسها لا يتجاوز الستة مليون نسمة، وهو ما يعني ان الانقلاب الديموغرافي قادم لصالح المستعمرات لا محالة. وكان مونتيسكو (١٦٨٩- ١٧٥٥م) أحد رواد عصر التنوير الفرنسي قد تنبأ بانفصال المستعمرات الأمريكية عن الدول الأوروبية بسبب القيود المفروضة على التجارة الأمريكية من قبل الدول الأوروبية الأم. في حين توقع الماركيز دراجنسن بأن تثور المستعمرات على إنجلترا وتكون جمهورية وتصبح إحدى القوى العظمى.

وعندما خرجت انجلترا منتصرة في حرب السبع سنوات (١٧٥٦-١٧٦٣م) استطاعت ان تذل فرنسا بتجريدها من مستعمراتها في العالم الجديد خصوصا كندا، وهو ما اعترفت به فرنسا في معاهدة باريس ١٧٦٣م، بذلك تكون انجلترا قد نجحت في إخراج أخر منافسيها من حلبة الصراع على العالم الجديد وسيطرت على أمريكا

الشمالية كلها تقريبا واحتفظت بنفوذ هائل في أمريكا الجنوبية، وبمعنى اخر فقد تحول المحيط الاطلنطي إلى بحيرة إنجليزية بإمتياز.

إلا أن الجانب الاخر من الحقيقة والواقع كان يحمل لإنجلترا خطرا أكبر، فقد شارك المستوطنون الامريكان في هذه الحرب وحققوا انتصارات على المستعمرات الفرنسية المتحالفة مع الهنود الحمر، فشعروا بقوتهم، بل والأخطر بالأمن وحرية الحركة، فالقوة الوحيدة التي كانت تسبب خطرا على وجودهم الثقافي والسياسي – فرنسا- قد أزيحت إلى الأبد، وأصبح في الإمكان الأن الثورة بكل ثقة على إنجلترا فالخوف من هجوم فرنسي يأتي من الشمال الغربي قد تلاشي، بل ان إمكانية التعاون أصبحت أوقع لرغبة فرنسا في رد شرفها على حساب الإنجليز. كما ان حقيقة القوة العسكرية الانجليزية كشفت امام المستوطنين الذين استخفوا منها بعد تعرضها لهزائم كثيرة وكبيرة في السنوات الأولى من الحرب، في حين اظهرت تلك الحرب قيادات عسكرية داخل المستوطنات ستلعب دورا هاما في مستقبل الأيام، كما ان مشاركة ٢٠ الفا من شباب المستوطنين في الحرب اكسبهم خبرة قتالية سيتم الاستفادة منهافيما بعد، وفوق كل ذلك فإن زوال الحكم الفرنسي كان قد فتح أمام المتسوطنين الأمريكان إمكانية التوسع نحو الغرب بصورة غير مسبوقة.

أما إنجلترا فقد رأت أن المستعمرات لم تقدم كل ما لديها لخدمة إنجلترا في الحرب فعاقبتها برفع سقف المعونات العسكرية والمالية المقدمة إلى لندن، ما سبب حالة من حالات التذمر العام داخل المستوطنات ضد السياسية الملكية، في وقت انغمست فيه انجلترا في إعادة ترتيب المستعمرات الفرنسية التي استحوزت عليها وهي مهمة شاقة أجبرت الإدارة على استقطاع الجزء الأكبر من وقتها لحلها.

لذلك كانت إنجلترا تعض على أناملها ندما على إذلال فرنسا وطردها من أمريكا الشمالية فبفعلتها تلك أزالت أخر كابح للثورة الأمريكية الوشيكة.

بعد أن احكمت بريطانيا العظمى (التي تأسست من خلال اتحاد سياسي بين مملكة إنجلترا وويلز ومملكة اسكتلندا سنة١٧٠٧م) قبضتها على المستعمرات الفرنسية في أمريكا الشمالية اصبحت مطلقة اليد في مساحات شاسعة من الأراضي البكر، ولضمان

استثمار أكثر من ناجح يصب في مصلحة التاج البريطاني بصورة أساسية حاولت الحكومة تسوية العلاقات بين لندن والمستعمرات تسوية حقيقية، فمنذ أن تولى الملك "جورج الثالث" (حكم ١٧٦٠-١٨٢٠م) مقاليد الحكم وهو يحاول تدعيم السلطة المركزية في ارجاء الإمبراطورية، فقد كان من هواة الديكتاتورية فلم يعر للبرلمان والحكومة أدنى إهتمام، متجاوزا بذلك الإصلاحات السياسية والدستورية التي أقرت في أعقاب عام ١٦٨٨م. وكان طبيعيا من ملك شديد التملك أن يزيد من حجم القوانين التي تقيد المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية خصوصا وأن الخطر قد زال بزوال الحكم الفرنسي على المستعمرات هناك، وكان غرض الملك جيمس الرئيسي هو تقوية العلاقة بين البلد الأم والمستعمرات وهي علاقة تباعية في الأساس، لما لمسه من ضعف الرابطة بين إنجلترا ومستعمؤاتها، فلم يهتم الكثير من الأمريكيين بالاشتراك في حرب راؤها في الأساس انجليزية- فرنسية، ولم يتحمسوا للحرب إلا بمقدار الخطر الذي هدد وجودهم في المستعمرات، ولم ينس الملك لهؤلاء أنهم ظلوا محتفظين بتجارتهم مع فرنسا أبان الحرب متجاوزين بذلك قرارات وقف التجارة مع العدو الفرنسي.

بدأت سياسة التضييق على المستعمرات منذ سنة ١٧٦٣م عندما بدأت الحكومة البريطانية العمل على تأكيد سيادتها على كل من المستعمرين والهنود الحمر كنتيجة من نتائج الانتصار الكبير على فرنسا، لذلك حدد القانون الحد الفاصل بين مناطق نفوذ الهنود الحمر وبين مناطق المستوطنين بـ"جبال اليقني"، وأجبر كل من يريد التجارة مع الهنود من المستوطنين على أن يحصلوا اولا على رخصة من السلطات البريطانية بذلك، كما منعوا من شراء الأراضي من الهنود، بمعني حولت بريطانيا المستعمرات إلى سجن كبير ومنعت المستعمرين من التوسع غربا وهو أمر منعهم من الحصول على مكاسب الحرب، وأثار موجة من الاستياء العام ضد الإدارة المركزية في لندن. لذلك لم يجدوا بدا من تحدي القرار الظالم من وجهة نظرهم وقاموا بالتوسع غربا متجاوزين جبال اليقني الحد الفاصل الذي عينته الإدارة البريطانية، ولم تكسب لندن من هذا القانون إلا المزيد من عداوة المستوطنين.

ولما كانت الإمبراطورية تعاني من جراء تكاليف حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣م) الباهظة، فقد أصبح اقتصاد بريطانيا في حاجة إلى موارد جديدة، ولم يجد رجال الإقتصاد أفضل من فرض الضرائب على المستعمرات كعلاج سريع للأزمة التي ضربت ميزانية لندن. وكان اول هذه القوانين قانون السكر ١٧٦٤م، الذي قضى بعدم استيراد الدبس (العسل الأسود) إلا من المناطق الواقعة تحت السيطرة الإنجليزية ومن ثم فقد فرضت الضرائب على العسل والنبيذ والحرير والبن والعديد من المنتجات، فيما قررت السلطات البريطانية التشدد في تنفيذ هذه الإجراءات المالية ومكافحة أعمال التهريب. رغم ذلك فقد قبل الامريكان هذا القانون في شقه المالي فقط فلم يكن فيه ما يزعجهم ماديا، لكن الرفض جاء من جرح بالغ في شعورهم الوطني عندما تخطت الإدارة في لندن سلطة المجالس التشريعية للمستوطنات والتي كان لها وحدها حق فرض الضرائب، وهو ما إعتبروه تعديا على حقوقهم الدستورية. كما أن القانون جاء في صيغة يفهم منها ان الهدف منه لا الارتقاء بالمستعمرات التي جمع منها الضرائب والرسوم، ولكن لخدمة المملكة، وهو ما جعلهم يشعرون بأنهم مواطنين من الدرجة الثانية.

ضريبة التمغة

توالت القوانين البريطانية المكلبة لحرية التجارة في الويات الأمريكية ففي عام ١٧٦٤ صدر قانون العملة الذي سلب الصفة القانونية للأوراق المالية المتداولة في المستعمرات، من حيث قانونيتها لسداد الديون، وفي نفس العام صدر قانون التمرد الذي طبق على المستعمرات كلها وهو أشبه بقانون التجنيد الإلزامي لكن لغرض قمع التمردات في المستعمرات. وفي عام ١٧٦٥م صدر قانون مساكن المستعمرات الذي فرض على سكان المستوطنات إعداد أماكن لإيواء القوات الملكية المتواجدة لصد هجمات الهنود الحمر، إضافة إلى توفير وإمداد تلك القوات بإحتياجاتها. وفي نفس العام صدر "قانون التمغة" سيء السمعة، وبه استكملت الإدارة البريطانية المركزية في لندن سلسلة قوانينها الداعمة لإعادة ربط المستعمرات بالإقتصاد الانجليزي ربطا كاثوليكا لا انفصال فيه.

فرضت ضريبة التمغة لموازنة الإنفاق على الدفاع عن المستعمرات، وقد أصاب هذا القانون بالدرجة الأولى رجال الصحافة والكتاب ورجال الأعمال أي طبقة البرجوازية القوية في مجتمع المدن الأمريكية، وقد فرضت تلك الضريبة على أساس لصق طابع يتراوح ثمنه بين ستة بنسات وستة جنيهات على الصحف والبطاقات والكتيبات والرخص والإيجارات والوثائق القانونية والمستندات التجارية وعقود البيع والرهن، وأي ورقة تحمل طابع التعامل الرسمي او التجاري بين طرفين. لذلك أثار المتضررون ضجة كبيرة مضادة لذلك القانون أثرت في الرأي العام الرافض أصلا لسياسة التدخل البريطاني في شئون المستعمرات، وأخذت ولاية فرجينيا زمام المبادرة في رفض هذا القانون، إذ أعلن "مجلس المواطنين" فيها ما بت يعرف بـ"مقررات فرجينيا" إنه ما من أحد يحق له أن يفرض الضرائب على أهل فرجينيا غير مجلسها التمثيلي، ثم حذت مساتشوستس حذوها،التي أرسى مجلسها التشريعي قاعدة قانونية هامة في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية عندما قرر بأنه ليس من حق البرلمان البريطاني فرض أي ضرائب على المستعمرات لأنها غير ممثلة في برلمان المستعمرة فـ"لا ضريبة دون تمثيل".

وجاءت المعارضة القوية من قبل المستوطنين لهذه القوانين تفعيلا لمبدأ إنجليزي متبع، وهو ينص على أن الضرائب لا تفرض إلا بموافقة الشعب ممثلا في نوابه، وهم في هذا يريدون ان يعاملوا معاملة أي مواطن بريطاني، كما ان الرفض في جانب منه كان لدواعي إقتصادية فتلك القوانين كانت في مراميها البعيدة ربط الاقتصاد الأمريكي بالاقتصاد البريطاني، وجعل الأول مجرد تابع لرغبات الإقتصاد الانجليزي،وهو ما يعني القضاء على طبقة كبار التجار التي نمت وكونت ثروات من خلال تجاهلها للقوانين البريطانية.

لم تلبث روح المعارضة ان انتشرت في كل انحاء المستعمرات، وتشكلت جماعة أطلقت على نفسها اسم "أبناء الحرية" وأخذت تدعو لمقاومة الضرائب الجديدة بشكل منظم، وقاموا بأعمال التهديد وحرق هذه الطوابع وأجبروا موظفي الطوابع على الاستقالة، وقد فرضت المجالس التشريعية في المستعمرات مقاطعة البضائع

البريطانية، تحت أسم اتفاقية "عدم الاستيراد"، وأجبرت تلك المقاطعة التجارية الحكومة البريطانية على إلغاء "قانون التمغة" كما أنها تغاضت عن تطبيق مختلف القوانين التي صدرت في السنوات القلية الماضية، إلا أن البرلمان البريطاني عمل على تقنين فرض الضرائب على المستعمرات في المستقبل فسن "قانون الإعلان" سنة ١٧٦٦م مؤكدا على حقه في فرض الضرائب على المستعمرات، بإعتبار أن ساكنيها ممثلين في البرلمان البريطاني بصفتهم "ممثلين ظاهريا" في البرلمان.

انتصر المستوطنون في أول مواجهة لهم مع بريطانيا العظمى، وهي معركة بلا سلاح حقيقة لكنها فاقت في نتائجها معارك البارود، فقد شعر المستوطنون بقوتهم وتأكدوا من ضعف الحكومة البريطانية أمام قدرتهم الإقتصادية المتصاعدة التي أجبرت التجار البريطانيين على الضغط على الحكومة من أجل التراجع، لذلك كانت مسألة الثورة من قبل المستوطنين مسألة وقت لليس أكثر. في حين اعتبرت بريطانيا ان الجولة الأولى قد انتهت فقط وان هناك العديد من الجولات التي ستنتهي بضرورة إخضاع جميع المستعمرات لإرادة لندن. لذلك وبين انتشاء المستوطنين بانتصارهم ورغبة بريطانيا في المزيد من القيود كان لابد من الصدام من جديد.

مذبحة بوسطن

ما ان تولى تاونشند رئاسة الوزراء في بريطانيا حتى قرر تنفيذ سياسة الملك الهادفة لإخضاع المستعمرات لذلك أصدر في عام ١٧٦٧م أوامره مستعمرة نيويورك بحل المجلس التشريعي فيها الذي رفض الموافقة على قانون الإسكان، وكان يهدف إلى جعل تلك المستعمرة الصغيرة عبرة لمن يعتبر في بقية المستعمرات، فيما قرر تاونشند فرض ضرائب على استيراد المستعمرات الشاي والورق والرصاص والورق، على أن تستخدم حصيلة هذه الضرائب لدفع مرتبات الحكام والموظفين الإنجليز في المستعمرات، كما أنشأ إدارة جديدة للجمارك وأعطاها السلطة القانونية الكافية لمنع عمليات التهريب.

رفضت جميع المستعمرات القوانين الجديدة، ففي بنسلفانيا تزعم "جون دكنسون" حركة الرفض للقوانين الجديدة ولخص رؤيته في كتابه "رسائل من مزارع". في حين

قام صامويل آدمز (١٧٢٢-١٨٠٣) -وهو أحد رجال الثورة فيما بعد- بدعوة المستعمرات للعمل ضد القوانين الجديدة فيما أقنع المجلس التشريعي في بوسطن بأن يعلن ما بات يعرف باسم "الرسالة الموزعة" التي عارض المجلس بمقتضاها حق البرلمان البريطاني في فرض الضرائب على المستعمرات، ونتيجة لتحريض "آدمز" قامت الجماهير البوسطنية بمواجهة رجال الجمارك البريطانيين، ومهاجمتهم ومنعوهم من تنفيذ القوانين الجديدة، ولم يتورع "آدمز" أن يكيل الاتهامات الباطلة لقوات الحامية البريطانية في بوسطن وهي اتهامات زادت النفوس المشتعلة اشتعالا، فلم تجد الجماهير الغاضبة التي لم يكن ينقصها الحماس إلا رجال الحامية البريطانية في بوسطن لتفريغ شحنة الغضب من الإدارة البريطانية فهاجموا مقر الحامية، أطلق الجنود النار على المتظاهرين فسقط ثلاثة قتلى من المتظاهرين في حين أصيب أخرين فيما عرف باسم "مذبحة بوسطن" ٥ مارس ١٧٧٠م. واستغل "آدامز" الحادثة للتشهير بالسياسة البريطانية في المستعمرات الأمريكية وهو من أطلق عليها لفظ "المذبحة" على الرغم من أن القتلى لم يزد عددهم عن ثلاثة. أمام هذا الرفض الشعبي وانخفاض صادرات بريطانيا إلى المستعمرات الأمريكية إلى النصف، تراجع البرلمان البريطاني وألغى ضرائب رئيس الوزراء "تاونشند" ما عدا ضريبة واحدة وهي ضريبة الشاي التي أصر الملك جورج الثالث على الاحتفاظ بها ليبقى حق فرض الضرائب قائما. وهكذا للمرة الثانية ونتيجة لصمود المستعمرين في أمريكا ولضغوط كبار التجار البريطانيين انتصرت إرادة المستعمرات وحققوا إنتصار باعد بين المستعمرات والبلد الأم خطوة أخرى.

ساد الهدوء النسبي المستعمرات واستمتعوا بثمار الانتصار على بريطانيا العظمى فازدهرت التجارو التي تخلصت من قيد الضرائب، كما تحسنت العلاقات مع لندن خصوصا أن بعض العناصر المعتدلة رأت ان الافضل عدم الانفصال النهائي عن الإمبراطورية البريطانية. لكن تيار الاستقلال كان يشتد تحت سطح العلاقات الهادئة، واستطاع "صامويل آدامز" شحن القوى الداعية إلى الاستقلال من خلال تنظيم انفسهم في ما سموه بـ"لجان المراسلة" سنة ١٧٧٢م في كل المستعمرات بغرض الدعاية ضد

الحكومة البريطانية واصطياد أخطاء البريطانيين، والدفاع عن حقوق المستعمرات. في حين استمرت المناضلة في سبيل الغاء ضريبة الشاي الممثل الأخير لمبدأ حق البرلمان البريطاني في فرض الضرائب، وقد تجاوب الأمريكيون جميعا مع دعوة مقاطعة الشاي الإنجليزي وأقبلوا على شراء الشاي المهرب من المستعمرات الهولندية رغم ارتفاع ثمنه، لإظهار تحديهم صراحة لرغبة ملك بريطانيا في التدخل في شئون المستعمرات.

حفلة شاي بوسطن

قررت الحكومة البريطانية من جانبها ان تعطي شركة الهند الشرية في عام ١٧٧٣م حق احتكار بيع الشاي في المستعمرات، ولضرب حركة تهريب الشاي في المستعمرات الأمريكية عمدت إلى تخفيض سعر الشاي ليصبح أرخص من سعر الشاي المرخص وهو ما هدد تجارة الشاي المحلية بالتوقف، وجعل تجار الشاي يغضبون من هذا الاحتكار الذي كان احتكارا لصالح شركة بريطانية في الأساس، وانضموا للناقمين على السياسة البريطانية، وشجعوا على استعمال القهوة والشوكولا بدلا من الشاي، ورفضوا تسلم شحنات الشاي التي جاءت بها الشركة، وأمام إصرار حاكم بوسطن الانجليزي على تفريغ حمولة شاي جاءت بها ثلاثة سفن، بادرت فرقة من الوطنيين متنكرين بزي الهنود تحت قيادة "آدامز" نفسه إلى دخول السفن وإلقاء حمولتها من الشاي في البحر، وكان ذلك في ليل ١٦ ديسمبر سنة ١٧٧٣م، وهي الحادثة المعروفة في التاريخ باسم "حفلة شاي بوسطن". وهكذا القى المستعمرون الأمريكيون بالقفاز في وجه الملك البريطاني المطالب لا باسترجاع نفوذه المتداعي في شرق الأطلنطي بل باسترجاع كرامته المهدرة في المقام الأول.

فقد أثار هذا العمل العنيف موجة عارمة من الاستياء والغضب في الأوساط البريطانية، ولم يعد هناك مفر من المواجهة فالملك ومعه الحكومة والبرلمان أصبحوا في موقف حرج فالشركة الهندية الشرقية أرسلت الشحنة بناء على قانون إنجليزي وإذا تراجع الملك الآن فإن هذا يعني اعتراف رسمي بحرية المستعمرات وزوال سلطانه عليها، لذلك دفع الملك البرلمان في عام ١٧٧٤م لإصدار خمسة قوانين دفعة واحدة

عرفت باسم "القوانين الجائرة" لدى الأمريكان أو "القوانين الإلزامية" لدى الإنجليز وهي: إغلاق ميناء بوسطن حتى يدفع الأهالي تعويضا عن شحنة الشاي، وتخفيض سلطات المجلس التشريعي في ماستشوستس بإعطاء حق تعيين مستشاري المستعمرة للملك بديلا عن انتخابهم، وعدم محاكمة المتهمين من موظفي الحكومة البريطانية داخل المستعمرة، وأخيرا إرغام المجلس التشريعي على توفير أمكان السكن وطعام الحاميات البريطانية.

وفي نفس العام جاء قانون كويبك ١٧٧٤م الذي منح الرعايا الفرنسيين في الامبراطورية البريطانية وضعية ممتازة في كندا واحترم قانونهم الفرنسي وكنيستهم الكاثوليكية، وهو ما يعني تبخر اي حلام لدي المستعمرات الامريكية في التوسع صوب الغرب، كما ان تقوية الكنيسة الكاثوليكية بهذا الشكل اعتبره المستوطنون ضربة للكنيسة البروتستانتنية.

أعطت تلك القوانين نتائج عكسية ورفضها المستوطنون وبدل ما تساهم في إخضاع المستعمرات الأمريكية كما كان يأمل السياسيون في لندن إذ بها تؤدي إلى رفع راية العصيان، فلم تخضع مستعمرة مساتشوستس بل ووقفت بجانبها مختلف المستعمرات، واقترح نواب مستعمرة فرجينيا دعوة مندوبي مختلف المستعمرات للاجتماع في ١٥ سبتمبر سنة ١٧٧٤م في مدينة فيلادلفيا، وقد لبت جميع المستعمرات -ما عدا جورجيا- الدعوة واجتمع ست وخمسون مندوبا يمثلون اثنتى عشرة مستعمرة، وهو الذي عرف باسم "المؤتمر القاري الأول" " الكونجرس الأول". الذي كان من بين اعضاءه جورج واشنطن وجون آدمز وتوماس جفرسون وبنيامين فرانكلين.

وكانت طموحات المجتمعين تقف عند مجرد الاعتراف بالحقوق التي أقروها في مؤتمرهم هذا اسوة بـ"اعلان الحقوق التاريخية التي اعلنت في اعقاب الثورة الانجليزية المجيدة في عام ١٦٨٩م.

وقد أقر المؤتمر منذ البداية مبدأ عدم الرضوخ للقوانين الجائرة، ثم وضعوا نص إعلان الحقوق والمظالم لشعب السمتعمرات، كما وجهوا طلبا للملك لإلغاء الضرائب، وبإنتظار رد الملك قرروا إعادة المقاطعة التجارية للبضائع البريطانية وتنظيم لجان

في كل المدن لتنظيم عملية المقاطعة والإشراف على الجمارك. كما اعلنوا ان أي اعتداء بريطاني على أي مستعمرة أمريكية يعد اعتداءا موجها ضد جميع المستعمرات الممثلة في المؤتمر. والملاحظ ان هذا المؤتمر لم يطرح فكرة الاستقلال للنقاش فقد كانت فكرة التابعية للإمبراطورية هي المسيطرة، إلا أن الملك جورج الثالث برغبته الاستبدادية لم يكن لينظر لمطالب مشروعة بعين الرضى طالما تحد من نفوذه وسلطانه، لذلك أصر على تنفيذ القوانين التي صدرت مؤخرا حتى ولو أدى الامر اللجوء إلى القوة.

أمام هذا التعنت أخذت المستعمرات في التسلح ، ففي ماتشوستس بدأت تظهر عمليات المقاومة، فأقام الاهالي معسكرا قرب مدينة "كونكورد" جمعوا فيه الكميات المتوفرة من الأسلحة والبارود، وبدأت تظهر معسكرات التدريب هنا وهناك. وعندما وصلت أنباء هذا المعسكر لقائد الحامية في بوسطن الذي قرر في أبريل ١٧٧٥م، أرسال فرقة مسلحة مكونة من الف جندي لمصادرة الأسلحة وإلقاء القبض على "صامويل آدامز" باعتباره المحرض على تلك الأفعال. إلا ان الحملة الإنجليزية وقعت في كمين نصبه لها رجال الميليشيا عند مدينة لكزنغتوت، ما اجبرها على التراجع بعد ان وجدت المعسكر خاويا بعد نقل الثوار جميع الأسلحة والمعدات منه، وأثناء عودتها تعرضت القوات البريطانية لهجوم من الفلاحين ورجال المقاومة، ولم تلبث الحامية ان وجدت نفسها محاصرة بأكثر من ١٦ ألف من رجال المستعمرات. ولم تلبث أصداء تلك المعارك المصحوبة بانتصار المستعمرين أن انتشرت في جميع المستعمرات، فبادر الوطنيون إلى طرد حكام المستعمرات التابعين لبريطانيا واستلموا إدارة الامو للدفاع عن بلدانهم.

وفي ١٠ مايو سنة ١٧٧٥ اجتمع المؤتمر القاري الثاني (الكونجرس الثاني) في مدينة فيلادلفيا الذي تبنت فيه المستعمرات المختلفة الجيش الصغير في بوسطن باعتباره جيشا امريكيا يخص كل المستعمرات، وقد عينوا لقيادته "جورج واشنطن" وهو شاب من فرجينيا لمع اسمه خلال حرب السنوات السبع، وأطلق على الجيش الموحد اسم "جيش القارة الامريكية".

اقترح المؤتمر "إلتماس غصن الزيتون" الذي أراد المجتمعون بمقتضاه مصالحة بريطانيا والملك، فالمؤتمر لم يكن يسعى إلى إعلان الاستقلال بقدر ما كان يريد علاقة تحكمها المساواة من قبل الإدارة البريطانية.

أصبحت الكرة الآن في ملعب الملك والإدارة البريطانية فكان بإمكانها بمزيد من المرونة ان تستوعب مثل هذه التظاهرات بمزيد من التخفيف الضرائبي مع الاعتراف بالاشكال التنظيمية التي بدأت تظهر في المستعمرات، إلا ان الملك رفض الطريق السهل وقرر قبول التحدي ورفعه لمستوى أعلى فقد أصدر في ٢٣ أغسطس سنة ١٧٧٥م تصريحا أعلن فيه أن المستعمرات الأمريكية في حالة عصيان، رافضا في الوقت ذاته مقابلة رسول المستعمرات الذي حمل مشروع للسلام. وهو ما رد عليه الثوار بتنفيذ هجوم في ربيع ١٧٧٦م على مدينة بوسطن بقيادة "واشنطن" نفسه أدت إلى تحرير المدينة وطرد القوات البريطانية منها. بذلك وصلت العلاقة إلى نهاية النفق المظلم، ولم يعد هناك ما يقال فقد اعلنت الثورة الامريكية على السيادة البريطانية وبدات حرب الاستقلال الامريكية.

الاستقلال

اشتعلت الأوضاع سريعا في كل من بريطانيا والمستعمرات الأمريكية واخذ كل من الطرفين يحشد قواه للمواجهة القادمة لا محالة، إلا أن الاجراء الذي اتخذته المستعمرات في اتجاه الاستقلال غير قواعد اللعبة إلى الأبد، فالدعوات القديمة التي تطالب بضرورة عدم الانفصال عن بريطانيا بدأت تخفت في مقابل صعود التيار الداعي للإنفصال، وكانت كتابات "توماس بين" وهو احد أبرز الداعين للانفصال تلقى رواجا هائلا بين المستوطنين خصوصا كتابه "شعور عام" وبيع منه مائة ألف نسخة، والتي نادى فيها بالحرية لجميع البشر، وعليه فمن حق المستعمرات الأمريكية أن تستقل، فليس من المعقول أن تسيطر جزيرة على قارة بأكملها،فأمريكا لنفسها وبريطانيا لأوروبا، واستطاع "بين" من خلال كتاباته توضيح معنى الانفصال عن بريطانيا وجعله مقبولا بل وفي حالات اخرى جعله غاية في ذاته، وهو ما جعل الجميع في المستعمرات متقبلين للانفصال ولكن بدرجات مختلفة.

وفي يوليو سنة ١٧٧٦م تقدم الزعيم "ريتشارد هنري لي" من فرجينيا إلى الكونجرس باقتراح يدعو المستعمرات لأن تكون دولة حرة مستقلة، وقد لقى هذا الاقتراح تأييدا عاما، فشكلت لجنة من خمسة من الأباء تضم: فرانكلين، وجفرسون، وجون آدامز، وليفنغستون، وشيرمان مهمتها إعداد وثيقة الاستقلال، وفي ٢ يوليو أقرت الوثيقة التي أعدها "جفرسون" بعد إدخال تعديلات عديد عليها من قبل الكونجرس (المؤتمر)، ثم اعلنت بشكلها النهائي في ٤ يوليو معلنة للعالم كله ميلاد أمة جديدة مستقلة. وأرسيت المبادئ الأمريكية في عبارة "إن البشر خلقوا متساويين وأنهم منحوا من قبل خالقهم حقوقا ثابتة من بينها حق الحياة والحرية والبحث عن السعادة".وقد أشير في خاتمة هذا الإعلان إلى ان نظرية الفيلسوف الانجليزي "جون لوك" التي حدد فيها وظيفة الدولة العليا في حماية الثروة والحرية، هي الأساس الفكري للثورة، وفي القسم الثاني سرد الإعلان شكاوى المستعمرات ضد الملك جورج الثالث، وفي القسم الأخير أعلن استقلال المستعمرات الثلاث عشرة عن بريطانيا وتغير اسمها ليصبح الولايات الأمريكية.

وتلقى المستوطنون نبأ الاستقلال بمزيج من الفرحة والدهشة، لانهم أصبحوا مواطنين في وطن حر، ودهشة لعدم معرفتهم بالقادم وموقف بريطانيا الذي لن يكون مرحبا بهذه لخطوة، لذلك ما أن اعلن ضرورة الكفاح المسلح من اجل الحصول على الاستقلال حتى اندفع الجميع لحمل السلاح انتظارا للحظة المواجهة.

الحرب

بدأت القوات البريطانية في حشد قواتها المتواجدة فيالولايات وفي كندا، فيما فرض الأسطول البريطاني القوي حصارا بحريا على المستعمرات فشل اقتصادها وجعل الاتصال بالعالم الخارجي خصوصا أوروبا شبه معدوم، في وقت كانت القوات الأمريكية سيئة التنظيم قليلة الخبرة، لاتزيد عن ١٨ ألف مقاتل، في حين ساعد بعض الأمريكيين القوات البريطانية وحافظت على ولاءها لها بل وأمدتها بحوالي ثلاثين ألف جندي. لذلك رغم التأييد الأوروبي للثورة الأمريكية إلا ان الجميع توقع أن تكون حربا قصيرا تحسمها بريطانيا بسرعة. ووقع أول اشتباك رسمي بين الثوار وبين

القوات لبريطانية قرب بوسطن في مكان يدعى "بنكر هيل" في يونيو ١٧٧٦م، ولم تكن أكثر من جس نبض.

حاول الثوار أن يمنعوا أي مدد قد يأتي من كندا إلا انهم فشلوا وردوا على أعقابهم في ديسمبر ١٧٧٦م من قبل القوات البريطانية المتمركزة في "كويبك". وكان اول نصر حقيقي للثوار عندما استطاع جورج واشنطن مهاجمة مدينة "بوسطن" وأجبر قائدها الانجليزي وليم هل على الانسحاب لتسقط المدينة في يد الثوار، إلا ان فرحة الثوار لم تستمر طويلا فقد نجح "هل" في طرد الثوار من مدينة "نيويورك" واستولى عليها، وجعلها مقر قيادة القوات البريطانية بذلك تعادلت كفتي الميزان من جديد. إلا ان شجاعة جورج واشنطن جعلته يتقدم –بعد ان كان قد انسحب إلى بنسلفانيا لتنظيم صفوفه- ليباغت الجيش الالماني المرتزق وهزمه ثم أتبع هجومه هذا إلى برنستون وانتصر على القوات البريطانية هناك، واستطاع استرجاع ولاية نيوجيرسي.

إنقاذ الثوار

أمام هذه الخسائر قرر القوات البريطانية القيام بهجوم شامل في عام ١٧٧٧م بغرض فصل القوات الأمريكيية إلى قسمين جنوبي وشمالي من خلال التحرك من نيويورك صوب فيلادلفيا، إلا أن سوء التخطيط أدى بهذه الحملة إلى الفشل، واستطاعت القوات الأمريكية بقيادة الجنرال الأمريكي "جيتس" محاصرة قوات القائد الانجليزي "بيرجوين" المكونة من ستة الاف مجند وهزمتها في موقعة سراتواجا ١٧ أكتوبر ١٧٧٧م شمال نيويورك، وأجبرتها على الاستسلام وكانت هذه المعركة فاصلة في تاريخ حرب الاستقلال، فقد كانت القوات الأمريكية في وضع سيء فقد نجح القائد "هو" في هزيمة "واشنطن" والسيطرة على فيلادلفيا، فجاءت موقعة سراتوجا لتحيي آمال الثوار من جديد، بل ومثابة إنقاذ لهم فلو هزم الثوار في سراتواجا، لقضي على أي آمال لهم في الانفصال، وعلى المستوى العالمي شجعت تلك الموقعة فرنسا وأسبانيا وهولندا على دخول الحرب ضد بريطانيا. فما كان من بريطانيا إلا أن ردت بإعلان الحرب على الدول الثلاث.

انتقام فرنسي

كانت فرنسا تتابع بشغف انهيار سلطة عدوتها اللدود بريطانيا في المستعمرات الامريكية، وكانت فرنسا تتحين الفرصة لرد الصاع صاعين لبريطانيا الإنتقام منها وهي التي جردتها من ممتلكاتها الأمريكية، لذلك كانت وزارة الخارجية الفرنسية على اتصال سري مستمر ببعض رجال الثورة الأمريكية، وكثيرا ما ارسلت لهم في غفلة عن أعين الأسطول البريطاني شحنات من الأسلحة والذخيرة، كما تم استقبال عددا من زعماء الكونجرس ورسله في باريس بصورة غير رسمية، وعند اشتعال حروب الاستقلال انطلق الكثير من المتطوعين الفرنسيين لخدمة القضية الأمريكية وكان على رأسهم المركيز لافاييت وهو ضابط شاب في الجيش الفرنسي، وقد التحق بجيش جورج واشنطن وخدم القضية الامريكية بإخلاص مما جعله يتبوأ مكانة كبيرة عند الامريكيين.

ولم تتدخل فرنسا في الحرب بشكل سافر إلا بعد معركة ساراتوغا سنة ١٧٧٧م التي حقق فيها الثوار انتصار كبيرا على قوات الانجليز، فغيرت فرنسا موقفها من التأييد المستتر إلى التأييد المعلن فاعترفت رسميا باستقلال الولايات المتحدة في عام ١٧٧٨م واستقبلت "بنيامين فرانكلين" عضو الكونجرس الأمريكي بصورة رسمية. وعقدت فرنسا مع الدولة الجديدة تحالفا تعهدت فيه الدولتان بمتابعة الحرب حتى تصير الدولة الأخرى مستعدة لتوقيع الصلح، بمعنى ان فرنسا قد دخلت الحرب حتى اعتراف بريطانيا باستقلال الولايات المتحدة، وبدأت الإمدادات الفرنسية تصل تباعا للأمريكيين، وقدمت الحكومة الفرنسية قرضا ماليا ضخما للثوار، فيما أبحر الأسطول الفرنسي إلى الولايات المتحدة حاملا معه ستة آلاف جندي بقيادة المركيز روشامبو.

أما أسبانيا فقد هالها تصاعد النفوذ البريطاني في أمريكا الشمالية وتخوفت من ان تدس بريطانيا انفها في املاك اسبانيا في امريكا الجنوبية، فكان تدخلها في الحرب كوسيلة دفاعية لإضعاف التفوق البريطاني.

المعركة الفاصلة

كان دخول فرنسا الحرب بأسطولها القوي عاملا حاسما في حرب الاستقلال ، فقد تمكن الأسطول الفرنسي بمساعدة الثوار من محاصرة فيلادلفيا وطردوا منها القوات

البريطانية ١٧٧٨م، وتتابعت هزائم القوات البريطانية في وادي أوهايو ما ساعد على تكريس نفوذ الثوار في الولايات الشمالية، ورغم سيطرة الانجليز على كارولينا الجنوبية إلا انهم أجبروا على إخلائها فيما بعد، وعند مدينة "يورك تاون" وعلى بعد أميال من جيمس تاون (أول المدن التي أسسها الإنجليز في العالم الجديد) وقعت أحداث المعركة الفاصلة في تاريخ حرب الاستقلال الامريكية.

فقد حركت قوات جورج واشنطن عام ١٧٨١م بمساعدة قوات فرنسية بقيادة وشامبو صوب "يورك تون" وتم ضرب الحصار حولها وهي من المعاقل الرئيسية للجيش البريطاني، فيما حاصرها الأسطول الفرنسي بحرا، وبعد دفاع مرير وهزائم فادحة، اضطر القائد البريطاني كورونواليس إلى التسليم في ١٩ أكتوبر ١٧٨١م، وكانت هذه الهزيمة نقطة فاصلة في تاريخ حرب الاستقلال الأمريكية فتعد هي النقطة التي تأكد فيها لجميع الأطراف أن الأمريكيين سيكتب لهم النصر وان المسألة لا تتعدى مسألة وقت حتى تخضع بريطانيا لحقائق الواقع. فقد سيطر الثوار لى الولايات الجنوبية، فيما بدأت الحامييات البريطانية في الإنسحاب من جميع مواقعها في الولايات الأمريكية.

كان استمرار الحرب من الجانب البريطاني مستحيلا فقد تكون رأي عام في البلاد رافض للحرب راغب في إنهاءها وتزعم هذا التيار في البرلمان كل من شاتام، وبيرك، وفوكس، وهوراس ولبول، وولكس، فقد خشى حزب الأحرار أن تزيد الحرب من سلطات الملك وحزب المحافظين على حساب البرلمان، فقد تولى الملك جورج الثالث الحرب بنفسه واضطلع على كافة تفاصيل المعراك الدائرة ف المستعمرات بل تستطيع القول انه هو السبب الرئيسي للحرب بعناده وتمسكه باراءه، فيما كان رؤساء الوزراء في هذه الفترة أصحاب شخصيات ضعيفة أمام تسلط الملك، فقد أطاع رئيس الوزراء اللورد نورث والوزراء الآخرون قيادة الملك وإن ناقض هذا رأيهم الخاص في حالات كثيرة، وأحس الملك أنه لو نجح الأمريكيون لواجهت لإنجلترا الثورة في مستعمرات أخرى، ولانحصرت آخر الأمر في جزيرتها.

واعتبرت الكنيسة الانجيلكانية الحرب نوعا من استمرار حروب التطهير الدينية

على اعتبار ان مظم المستعمرين من المنشقين على مذهب الدولة، وكان هذا طبيعيا من كنيسة تعد خاضعة للدولة، لكن الرأي العام بدأ يقتنع أكثر بنبوءة المفكر الفرنسي مونتيسكو التي تنبأ فيها بانفصال المستعمرات، وحذر الفيلسوف الكبير "ديفيد هيوم" بريطانيا وهو على وشك الموت من أن محاولة إكراه أمريكا ستفضي إلى كارثة على بريطانيا نفسها.

وجاء الانقلاب في موقف الرأي العام والبرلمان من الحرب بعد أن خطب اللورد شاتام خطبة نارية في البرلمان قال فيها:

"أيها السادة، أنكم لا تستطيعوا قهر أمريكا، قد تزدادون غلواً في بذل النفقة والجهد المفرطين، وقد تجمعون وتكومون كل ما تستطيعون شراءه أو اقتراضه من معونة وقد تتاجرون وتقايضون مع كل ملك ألماني حقير ضئيل يبيع رعاياه ويرسلهم إلى الذبح، قد تفعلون هذا كله، ولكن جهودكم تظل إلى الأبد باطلة عاجزة-ويضاعف من بطلانها وعجزها هذا العون المرتزق الذي تعتمدون عليه، لأنه يهيج عقول أعدائكم إلى حد الكراهية التي لا شفاء منها. ولو كنت أمريكياً، كما أنا إنجليزي، ورأيت جندياً أجنبياً يرسي في أرض وطني، لما وضعت سلاحي-أبداً-أبداً-أبداً-أبداً".

كان لهذه الخطبة النارية أثرها خصوصا مع توالي انباء الهزائم البريطانية في أمريكا على الرأي العام البريطاني الذي أيد انهاء الحرب، مع التحذير بأن استمرار الحرب سيخلق حالة من العداء بين الولايات المتحدة وبريطانيا في المستقبل، وسيلقي بالثوار في حضن فرنسا وأسبانيا، بما يهدد التجارة البريطانية في الأطلنطي ويهدد بزوالها إلى الأبد. إلا ان الملك جورج الثالث رغم كل ذلك أصر على متابعة الحرب غير أن الهزائم توالت على جيوشه وتزايدت نفقات الحرب بصورة كبيرة وطردت القوات البريطانية من جميع الموانئ الأمريكية ولم يعد لديها أي موقع استراتيجي تستطيع العمل من خلاله عدا نيويورك، كل هذا أقنع الملك العنيد في النهاية ان نهاية الحرب وشيكة وان الجنوح إلى السلم ضرورة، وفي سنة ١٧٨٢م تم تعيين اللورد "روكنجهام" رئيسا للوزراء وكلف بمهمة واحدة وهي بدأ مفاوضات السلام مع الثوار الأمريكيين.

الاعتراف بالاستقلال

وبدأت المفاوضات السرية بين الثوار والحكومة البريطانية، ووافقت بريطانيا في مرونة على إنشاء دولة أمريكية تمتد حدودها من البحيرات لكبرى إلى فلوريدا ومن المحيط الأطلسي إلى نهر المسيسيبي، كما وافقوا على منح الدولة الجديدة حق الصيد في سواحل كندا والملاحة في نهر المسيسبي، في المقابل تعهد الثوار بعدم معاقبة الأمريكيين المتعاونيين مع القوات البريطانية، وأبرمت مقدمات الصلح بينهما في ٣٠ نوفمبر ١٧٨٢م، ثم أعلنت الهدنة في ٢٠ يناير ١٧٨٣م.

ووافقت فرنسا وأسبانيا على عقد مؤتمر موسع في باريس لبحث شروط إنهاء الحرب رسميا، فعقد مؤتمر باريس ١٧٨٣م، الذي أقر معاهدة باريس التي تبنت الاعتراف باستقلال الولايات الأمريكية وفقا للشروط السرية بين الثوار والحكومة البريطانية، مع تنازل بريطانيا عن فلوريدا لأسبانيا، وفي ٣ سبتمبر سنة ١٧٨٣م وقع جميع الأطراف المشاركة في الحرب على المعاهدة النهائية، لتنتهي بذلك حرب الاستقلال الأمريكية.

وبعد الحرب أصبحت كل ولاية تشكل وحدة سياسية مستقلة إلا أن تيار الوحدة كان قويا ففي عام ١٧٨١م تم التوقيع على الدستور الكونفدرالي، وهو دستور ظهرت على السطح صعوبات تنفيذه على أرض الواقع فقد تقرر ألا يكون هناك ريس للحكومة المركزية بل لجنة مكونة من ثلاثة عشر عضوا –واحد عن كل ولاية- ، وبعد القرارات كانت لا تأخذ إلا بعد موافقة جميع الولايات وهو أمر صعب.

لذلك اجتمع ممثلي الولايات في قاعة بلدية فلادلفيا (سميت فيما بعد قاعة الاستقلال) في مايو ١٧٨٧م واتفقوا على كتابة دستور جديد للبلاد، وتقرر ان يكون هناك مجلسين لإدارة البلاد احدهما يكون التمثيل فيه حسب عدد السكان –كما اقترح ذلك مندوبو الولايات الكبرى- ويسمى مجلس الممثلين (النواب)، ومجلس آخر يكون التمثيل فيه بالتساوي –كما طلب بذلك مندوبو الولايات الصغرى- ويسمى مجلس الشيوخ، وهو ما بات يعرف في التاريخ الأمريكي بـ"التسوية الكبرى". وأقر الدستور الجديد تكوين حكومة فيدرالية يكون لها رئيس واحد منتخب، وتم الموافقة على هذا

الدستور في منتصف سبتمبر ١٧٨٧م وبقى موافقة الولايات المختلفة عليه وهو ما تم في العام التالي، وتم اختيار بطل حرب الاستقلال جورج واشنطن كرئيس للولايات المتحدة الامريكية، وتم تنصيبه في ٣٠ أبريل عام ١٧٨٩م كأول رئيس للجمهورية الفيدرالية ، وتم تنتخاب جون آدامز كنائب للرئيس، واختيرت مدينة نيويورك كاصمة للاتحاد، قبل ان تنتقل إلى مدينة واشنطن المقر الحالي للحكومة الأمريكية.

انتهت الثورة الأمريكية إذا وأرست دعائم مجتمع جديد يعتمد فيه المرء لى عمله لا على ما يرثه، وأصبح للعمل هناك قدسية موازية لقدسية الدين، واحرتم المجتمع الأمريكي الجديد الكفاءات العلمية بغض النظر عن أصولها، فتحولت تلك الأراضي المترامية المعروفة بالولايات المتحدة أرض الفرص لكل مجتهد، ولم يكن غريبا أن تنهض هذه الدولة التي لا أصل لها في سنوات قليلة وتصبح من القوي الكبرى في العالم، وأكبر قوة في الجزء الغربي منه، وأن تتحدى الدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا وتجبرهم على احترام نفوذها المتصاعد في الأمريكتين، ولم يكن غريبا والحال هكذا أن تتحول هذه الدولة الناشئة بفضل اخلاص ابناءها إلى قارة كاملة عن طريق التسوع والشراء والحروب لتصل إلى حجمها الجيو-سياسي الضخم بما يمثله من ثقل في موارده الطبيعية التي أحسن استغلالها طوال القرن التاسع عشر، الذي حملت نهايته بداية قرن التفوق الأمريكي. فكل ما جرى من احداث حملت هذا الشعب المكافح إلى قمة العالم بدأت هنا عندما قرر الشعب أن يثور على دولة أم تربطه بماضي قديم يكبله ويمنع إنطلاقته، فكانت الثورة لا ثورة حرية فقط بل ثورة جديد على قديم، والأهم ثورة الحرية الاقتصادية التي ستحمل هذا الشعب إلى قمة العالم.